أسرار الأذان والإقامة فى أذن المولود

الحقيقة أن كل ما قال به الفقهاء والمفسرون، وما يؤكدون عليه من فضل الآذان والإقامة فى أذن المولود، وما تحمله كلمات الأذان والإقامة من معاني التوحيد والعبودية المطلقة لله سبحانه، وما تشتمل عليه معانيها من الدعوة إلى إقام الصلاة وهى أهم فرائض الإسلام، وهى الصلاة، هو فى جوهره تثبيت لمعالم الفطرة فى نفس الطفل، فكل مولود يولد على الفطرة، كما جاء فى الحديث الصحيح عن رسول الله (قال: (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه).

د. محمد يوسف خليل - استشارى الطب النفسى

وهذه المعاني كلها أفاض فيها المفسرون، بما يتضاءل كلامنا بجوار ما قالوه، وقد أجادوا فيه وأحسنوا، وكله ينتهي إلى حكمة الأذان فى أذن المولود وأسرارها فى تثبيت جوهر العقيدة فى نفسه منذ نعومة أظفاره.

ولكن الذي نحن بصدده هو اتساع آخر يضاف إلى أسرار الأذان والإقامة فى أذني المولود، فى هذا التوقيت بالذات، وهو بعد الولادة بساعات قليلة.

والحقيقة التي أريد أن يدركها القارئ، أنني لم أصل إلى سر الأذان والإقامة فى أذني المولود، عن طريق فهم أو تدبر، أو تعمق فكر، فقد لبثت سنين أتساءل فى نفسي عن سر الأذان والإقامة، حتى جاءتني الإجابة خاطراً إيمانياً من خواطر النفس، أو إلهاماً من الإلهامات التي يقذفها الله سبحانه فى القلب، أو هي لمة من لمات الملك التي تخطر على النفس والقلب والوجدان.

هذا ما حدث فعلاً ! ولأهميته وعظمته وغرابته، فإنني أسجله تماما كما حدث، بعد أن أشبع الموضوع بحثاً وتعليقاً، يؤكد صدق هذا الخاطر، ويوضح حقيقة أعماقه العلمية وأسراره الروحية والنفسية.

فقد ورد هذا الخاطر الإيماني، على عقلي فى صيف سنة ١٩٧٧م فى المسجد النبوي بالمدينة المنورة، وفى الروضة الشريفة، وكانت سعادتي بمعناه ومغزاه غامرة، جعلتني أتحدث به فى لقاءاتي مع زملائي وأصدقائي. والحقيقة التي لا يمكن إنكارها أن كل من كان يستمع إلى هذا الخاطر، يسر له ويتعجب من صدق معناه، وهذا لا يعني أننا توقفنا بسر الأذان والإقامة عند هذا الخاطر، ولكنه ضمن أسراره التي قد تغيب عن الذهن ومدارك الفهم، وممن تحدثت معهم فى هذا الموضوع بتعمق وتدبر، كان الأستاذ الدكتور جمال ماضي أبو العزايم – رحمه الله.

وكان الحديث من البداية عن أسرار الآية الكريمة: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾

(الإسراء : ١٣،١٤).

فاختارها الدكتور جمال، ليحقق بها بحثا عن الجهاز العصبي ونشأته وإعجازه العلمي والتشريحي، وكان هذا قبل مؤتمر الإعجاز العلمي فى القرآن الكريم، الذي نظمته المملكة العربية السعودية برئاسة الدكتور «الزنداني» وكان مقره جامعة الدول العربية سنة ١٩٨٥م. فماذا قال الدكتور جمال ماضي –رحمه الله–عن الجهاز العصبي ونشأته؟

نشأة الجهاز العصبي وإعجازه العلمي:

قال سيادته: إن علم الأجنة يوضح أن الإنسان فى أيام حياته الأولى، ولما يبلغ طوله ثلاث سنتيمترات، تبدأ طبقة الجلد عند الظهر فى الانغماس، على شكل تجويف، ثم يزداد انغماسها وتنفصل عن الجلد، وتصبح على شكل أنبوب يمتد بطول الظهر تحت الجلد، وفق ما هو معروف بأن الجهاز العصبي ينشأ من الجلد، وهما نسيج واحد، وعند العنق بالذات تبدأ هذه الطبقة التي انفصلت من الجلد فى التكاثر من الأمام، ومن الوسط، ومن الخلف، فيتكون من الجزء الأمامي فصا المخ، ومن الوسط يتكون المخ المتوسط، ومن الخلف يتكون النخاع الشوكي الذي يسكن فى

فقرات العنق ويغذي أطراف الجسم كلها، وفصا المخ عند تمام نموهما يحتويان على مائة بليون خلية عصبية، ومن تجمع بعض أطراف الخلايا، يتكون اثنا عشر زوجاً من أعصاب الجمجمة تغذي الرأس، وتتصل بالجهاز الدوري، بما فيه من القلب والجهاز التنفسي، وفى داخل المخ تتكون مراكز الحركة والإحساس والذاكرة، وهي التي تسجل أحداث الحياة وتحتفظ بها، بعد أن تصل إليها المعلومات من أعضاء التنصت المثبتة على جانبي الرأس، وهى العينان والأذنان والشفتان واللسان، وحولها الجلد الذي يغطي المنطقة كلها، وهذا ما قال به علم التشريح وعلم الأجنة وهى علوم البشر.

أما إعجاز الخلق كله، فقد تحدث به رب العزة سبحانه فى محكم آياته من سورة الحج، وسورة المؤمنون، وسورة غافر. إذ يقول سبحانه فى سورة الحج: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ (الحج : ٥).

ويقول سبحانه من سورة المؤمنون: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ (المؤمنون ١٢: ١٤).

ويقول سبحانه من سورة غافر: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (غافر: ٦٧).

وإذا كان هذا إعجاز الخالق سبحانه، وهو يحدثنا عن بداية خلق الإنسان، فإن مكونات هذا الخلق غاية فى الإعجاز الذي قد لا يحيط ببعض أسراره إلا العلماء والأطباء. والجهاز العصبي من مكونات هذا الخلق، وهو الذي يهيمن ويسيطر على أجهزة الجسم كلها ، ومن الإعجاز أن الذي يسير هذا الجهاز كله، ويزيد من قوة فاعليته، هي الخلية العصبية التي يتكون منها، وهي تتعدى البلايين فى عددها.

والخلية العصبية إعجازها خارق، وحتى يتبين لنا ذلك فلا أقل من أن نعرف مكوناتها وكيف تعمل؟، وهى ما بدأت بالتوسع فى معرفته، عندما اختارني أستاذنا د. أحمد وجدي (رحمه الله)، لأكون أول متخصص لهذا الفرع من المعرفة فى أكتوبر ١٩٥٩.

الخلية العصبية وإعجازها الخارق:

والخلية العصبية فى صغر حجمها لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة، فهي أجزاء قليلة من المائة من المليمتر، وتتكون من البروتوبلازم، وهو سائل بروتيني مائي به أملاح الصوديوم والبوتاسيوم والكالسيوم والمنجنيز، وفى وسط الخلية توجد النواة – وأمرها أعجب وأخطر فهي تتكون من مواد بروتينية أهمها D.N.A & R.N.A وهي الأحماض الأمينية، ومن داخلها الكروموزومات التي تحمل الجينات (المورثات)، التي بها تنتقل الصفات الوراثية للإنسان من آبائه وأجداده، وهي تمثل الإعجاز الخارق الذي لا زال العلم حائراً بين تعدد وظائفها. وقد قال عنها الدكتور مصطفى محمود فى برنامجه العلم والإيمان: إنها شفرة كاملة لأحداث الحياة كلها، حتى إنها تحمل من أسرارها تاريخ وفاة الإنسان، والقرآن الكريم يعبر عنها بالأمشاج، يقول سبحانه فى أول سورة الإنسان: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ (الإنسان: الآية ٢:١).

ويخرج من جوانب الخلية روافد أشبه بالخيوط وهي التي تتصل ببقية الخلايا، فتتشابك معها وفى طرف الخلية موصل، هو حبل الخلية، قد يصل طوله إلى متر، وهو يتكون من مادة دهنية. وهذه الموصلات عندما تتجمع تكون الأعصاب.

وبهذا تتصل الخلية إلى بمراكز الحس والحركة التي تتصل بدورها بجميع أعضاء الجسم وأحشائه، وروافد الخلية تستقبل الموجات الكهربائية من الخلايا الأخرى، لأن الخلايا العصبية، وكل الخلايا الحية عموماً هي مصدر النشاط الكهربائي فى الجسم، وهي التي تتولد فى داخلها الكهرباء، وهذه الكهرباء بيولوجية فسيولوجية، أي تتولد من نشاط الجسم البيولوجي ووظائفه الفسيولوجية، بمعنى أن نشاط الجسم، ونشاط أجهزته، ونشاط أعضائه يتحقق بنشاط الخلايا. ونشاط الخلايا معناه نشاط كهربي، ومعناه أن الخلية تؤدى وظيفتها فإذا كانت الخلية ساكنة، فمعنى هذا أنه ليس لها أي نشاط كهربي، فإذا نشطت فمعنى هذا أن هناك نشاطاً كهربياً فسيولوجياً قد حدث نتيجة

تحرك الأملاح التي بداخلها، وهو الصوديوم والكالسيوم والبوتاسيوم والمنجنيز- ومن المعلوم أن البوتاسيوم ثابت فى داخل الخلية لا ينفذ منها- ولابد أن يتوافر الماء داخل الخلية حتى تتحرك الأملاح وتتولد الكهرباء، فلولا الماء ما كان هناك كهرباء، ولولا الكهرباء ما كان هناك نشاط، ولولا النشاط ما كان هناك حياة، وصدق ربي سبحانه وتعالى وهو يقول:﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ (الأنبياء:٣٠).

وكل إنسان يسهل عليه أن يتصور كيف تنشط الأعضاء، وكيف تتولد الكهرباء، وكيف تنتقل الكهرباء من مكان إلى مكان بسرعة البرق، وكل إنسان يتعرض لارتطام مفصل الكوع بجسم صلب، فهو يحس بالألم فى نفس اللحظة فى إصبعيه الخنصر والبنصر، وهذا يعني أن ارتطام مفصل المرفق قد أصاب العصب فى هذه المنطقة، ومعنى ذلك نشاط العصب بعد أن كان ساكناً، وبهذا النشاط الفسيولوجي، تتولد الكهرباء (سالبة الشحنة)، فإذا تولدت فهي تنتقل فورا إلى طرف العصب، وهو الأقل نشاطا، ولهذا ينتقل الإحساس من مفصل المرفق إلى الخنصر والبنصر فى سرعة البرق، وهكذا تتم العمليات البيولوجية والعصبية فى جسم الإنسان.

فالذاكرة تنشط عندما يفكر الإنسان، وينتقل النشاط إلى مركز المعلومات، وتنتهي إلى استرجاع الأحداث التي يفكر فيها الشخص، وهذا كله نشاط بيولوجي فسيولوجي.

والمخ هو مركز النشاط العصبي كله، وفى المخ توجد كل مراكز الحركة والإحساس لجميع الأعضاء والأحشاء بمختلف شحناتها، وهذا ما يسجله جهاز رسام المخ بكل أمانة ودقة، وذلك حسب الوقت الذي يسجل فيه، وحسب كمية النشاط فى الخلايا، وبهذا يتم تسجيل السلوك البشري كله، وصدق ربي سبحانه وتعالى وهو يقول: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾(القمر: الآية ٥٣).

وبهذه العملية الفسيولوجية الكهربائية التي تحدث فى الخلايا، مع نشاط الجهاز العصبي، يبدأ التسجيل الذي نحن بصدد تفسيره، وهو الأذان فى أذن المولود، وهو بمفاهيم الجهاز العصبي أول صوت يصل إلى أسماع المولود، وهو أول ما يسجله المخ على أليافه العصبية.

الله أكبر- الله أكبر
الله أكبر- الله أكبر
أشهد أن لا إله إلا الله
(مكررة)
أشهد أن محمدا رسول الله
(مكررة)
حي على الصلاة (مكررة)
حي على الفلاح (مكررة)
الله أكبر الله أكبر
لا إله إلا الله

هذه صيغة الأذان، وهو أول صوت يصل إلى أذن المولود، ويسجله المخ، وتحتفظ به الذاكرة، وصيغة الإقامة، هي نفسها صيغة الأذان مع عدم التكرار، إنه نداء الفطرة، إنه التلقين الذي يُثَبّتُ الله به إيمان العباد، إنه إعادة لما شهد به العبد على نفسه فى عالم الذر، وهى شهادة يبينها الحق سبحانه فى قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٢-١٧٣).

وبهذا يصبح الأذان والإقامة فى أذني المولود تثبيتاً لمعالم الفطرة فى ذاكرة الطفل المسلم، يقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: (كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه) رواه أبو يعلي والطبراني فى مسنده، وبهذا يحمل المولود فى عنقه ربقة الإسلام، وبيعة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، عليها يحيا وعليها يموت، وعليها يبعث آمنا يوم القيامة إن شاء الله. وبعد هذه الشهادة يبدأ التسجيل وما هو معلوم أن المولود ليس له سلوك يسجل له أو عليه، ولكن ما يسجله المخ فى هذا الوقت المبكر من حياة الطفل هو ما يقوله الآباء والأمهات، وما يصدر منهم من أقوال وأفعال، وهو سلوك يحاسبون عليه وقد يكون من محاسن أعمالهم وربما كان عكس ذلك.

ولن نسترسل فيما يسجله الآباء والأمهات على أنفسهم، ولكنا نتحدث عما يسجله الإنسان على نفسه عندما يصبح مكلفاً ومسئولاً عن عمله، يخرج هذا التسجيل يوم القيامة، كتاباً يلقاه منشورا، ويقول له الحق سبحانه وتعالى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ (الإسراء: آية ١٤).

والحقيقة أنني تحدثت عن تسجيل الأعمال- فى مجلة «النفس المطمئنة» وهي لسان حال الجمعية الإسلامية للطب النفسي. وقلت إن الدكتور جمال، رحمه الله، وجزاه الله خيراً، قد شبه المخ بالطائر استئناسا بالقرآن الكريم من قول الحق سبحانه «طائره فى عنقه» وهذا تجسيد لأجزاء المخ فى ترابطها، وشكلها التشريحي، بما فيها من فصي المخ، والمخ الأمامي، والمخ المتوسط، والنخاع الشوكي، والتشبيه له وجاهته العلمية، ولكن الله سبحانه لا يصف الأعضاء بأشكالها التشريحية

أو بغيرها مما نتصوره، فيعلم عنها فئة من الناس دون غيرهم، إذا أجهدوا تصورهم، ولكن الله سبحانه يصف الأعضاء بعمومية تختلف وتتعالى مع تعالى علمه وقدرته، ومع أن العرب عرفوا علم التشريح فى العصر العباسى، إلا أن أحدا من المفسرين لم يقل بهذا الرأي، ولكن الذي قالوا به- ومنهم الإمام البيضاوى وغيره- قالوا: إن المقصود بالطائر فى العنق هو العمل، وبهذا يصبح المعنى أوضح، فكل إنسان ألزمه الله عمله فى جهازه العصبي مودعا فى عنقه مسجلاً فى خلايا المخ، وعلى أليافه العصبية، وهذه وظيفة مهمة من وظائف الجهاز العصبي بما فيه من ذاكرة، فى حدود مدارك البشر، فهو يسجل مدركات من محسوسات سمعية وبصرية ومن أحاسيس الجسم، وهي ما نراه وما نسمعه وما نحسه بحواسنا المعروفة- وليس هذا فحسب بل هو يسجل مدركات ومعلومات تختفى فى نفس الإنسان وضميره، وهذا ما يوضحه قول الحق سبحانه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾.

(الإسراء: آية ٣٦).

وهذا يعني أن العاطفة والوجدان، وما يصل بذلك من هوى النفس، كل هذا محسوب ومسجل فى خلايا المخ، وهذا كله محفوظ فى داخل الرأس بقدرة الخالق سبحانه، تحيط به عظام الجمجمة، وتحيط به أغشية ثلاثة، وتغذيه أوعيته الدموية، وتحميه سوائله، وهذا أول جهاز تسجيل عرفته البشرية يحمله الإنسان فوق عنقه، ويسير به أينما اتجه، لا ينفك عنه، وأجهزة تصنته من الحواس الخمس مثبتة على جوانبه، متصلة به اتصالا مباشرا لا تفارقه، هذا هو مسجل القدرة الإلهية.

خلق عجيب، استودعه الله أعلى قمة فى الإنسان يتربع فى هذا المكان، ويطل على ما حوله، ومن الإعجاز الغريب أن الله سبحانه كما رفع مكانه، جمل المكان وعظمه، وجعل ما يحيط بالجهاز العصبي، من أدوات تتصت من سمع وبصر وشم وتذوق وإحساس، جعل أعضاءها من صفات الحسن والجمال، يتغنى بها الشعراء، ويعتني بها الرجال والنساء. ولكونها أدوات تنصته، فهي تلتقط كل ما يصدر عنه من إحساس وحركة وعاطفة وسلوك، تسجله فى الذاكرة فى خفاء، والجمجمة وما يحيط بها من أعضاء مغلقة كلها محاطة بالجلد، وهو من نفس نسيج الجهاز العصبي، ولهذا فإن اللمسة وكل ما يحسه الجلد ويتلذذ به أو يتألم منه كله مسجل، وهذا ما يشير إليه قول الحق سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

(فصلت: آية ٢١).

والناس اليوم يتسابقون على حمل الهاتف، وقد أصبح المحمول فى يد أصحاب الأعمال والشباب يقلدونهم كمظهر من مظاهر الترف، وهذه سمة العصر الذي نعيشه ومن مستحدثاته واختراعاته، ولا يدري هؤلاء الشباب أنهم يسجلون على أنفسهم كل ما ينطقون به ويقولون ما لا يقال وبهذا أضافوا محمولا صناعيا فوق ما يحملونه من المحمول الحقيقي، وخير للشباب أن يسجل على نفسه محمولاً واحداً حتى لا ينوء كاهلهم بعد ذلك بما يسجله هذا المحمول الجديد من أسرار، هي فى حقيقتها ذنوب وأوزار، إلا من عصمه الله وكان محمولة لخير دينه ودنياه.

فكل إنسان يحمل فوق عنقه هذا المحمول، كل الناس فى حمله سواء، كل يحمله بداخل رأسه، يسير به حياته كلها، يحمله فى كل أوقاته، وعموم أحواله فى نومه ويقظته، فى انتباهه وغفلته، فى أفراحه وأحزانه، فى عسره ويسره، فى تفكيره وتدبيره، ولا يتعطل لحظة واحدة، وتوقفه عن العمل معناه هلاك صاحبه، هذا هو المحمول الحقيقي، وهو جهازك العصبي الذي يحمل عملك، خلقه سبحانه بقدرته، وسيره بحكمته، ليعمل على مدى العمر كله، لتعلم أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما، يسجل هذا الجهاز فى كل لحظة، لا يهدأ ولا يستريح، فليست أليافه التي يسجل عليها أليافا صناعية، تبلي وتتآكل عندما يدركها القدم، ولكنها ألياف عصبية وخلايا حية تتجدد وتنشط، وتحيا حياة بيولوجية بحياة الإنسان، فلا يتوقف نشاطها إلا بانتهاء الأجل، ويتصل بسمعك، وبصرك وفؤادك، وكل ما بداخل جسمك من أعضاء وأحشاء، اتصالاً مباشراً وغير مباشر فيصل باتصالاته العصبية إلى داخل أعماقك، فيسجل خائنة الأعين وما تخفى الصدور، وصدق ربى سبحانه وتعالى وهو يقول: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾

(من آخر سورة البقرة).

هذا هو الفارق الكبير بين التسجيل الإلهى والتسجيل البَشَرى، لأن المخ وهو مسجل القدرة الإلهية عندما استودعه الله فى عنقك، تغذيه دماؤك، وتصل إليه شرايينك، وتتقيه أوردتك، فلا يعلق به ما يفسده، جعل الله سبحانه من وظائفه أن يسجل أحداث الحياة كلها، حلوها ومرها، صفاءها وكدرها، صدقها وكذبها، جدها وهزلها، سرها وعلنها. ألم تسمع قول الحق سبحانه وهو يقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾

(سورة ق: ١٦-١٨).

أما كيف يسجل؟ فهذا ما اكتشفه العلماء عندما اخترعوا جهاز رسام المخ الكهربائى، واستقبلوا به نشاط المخ كله فى صورة شفرة كهربائية فسيولوجية، هي حصيلة تفاعلات وظائف الجسم البيولوجية، بما فيها من فكر وعاطفة ونزوع. وهذا ما وضحناه عندما تحدثنا عن الخلية العصبية وكيف تتفاعل، وهكذا، فإنه يمكننا أن نقول إن أعمال الإنسان مسجلة له أو عليه، عن طريق خلايا المخ ، بالإضافة إلى حفظ هذه الأعمال عن طريق ما يسجله الحفظة الكرام الكاتبون، وصدق ربى سبحانه وهو يقول: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾

(سورة يونس: ٦١).

ويقول سبحانه: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾

(الانفطار: ٩-١٢).

ويقول سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾

(الزخرف: الآية ٨٠).

هذا هو عمل الإنسان مسجل بعلم الله وحكمته وقدرته، فى صور متعددة، وكلها تحت سمع الله وبصره، لا يخفى عليه شيء، ومن هذه التسجيلات المتعددة ما يسجله الجهاز العصبى، وما يسجله الإنسان على نفسه، ويوم القيامة يخرجه رب العزة صحفاً مكتوبة تتطاير، فإذا انتهت إلى صاحبها قال له الحق سبحانه: ﴿اقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ فإذا تيقن العباد أنهم محاسبون، بما قدمت أيديهم سمعوا صوت الحق يقول: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

(الجاثية: الآية ٢٩).